والكمال وبتركيز أشد ، مع فارق بسيط ، هو ان نزلاء السجن أصدق وأشرف .

ففى الخارج يرفع النصاب عادة شعار الشرف ، ويرتدى الجبان زى الشجاعة ، ويتغنى البخيل بالكرم . ويتشح السافل بمكارم الاخلاق ، ولكن فى السجن ، كل شيء ظاهر ومكشوف وعلى عينك ياتاجر ! وهم عندما ينادون الاخرين ، ينادونهم بأسمائهم وصفاتهم دون تزويق ولا رتوش ، فاروق النصاب ، واسماعيل القواد ، وسيد الحرامى وابراهيم مخدرات !

وهأنذا الآن ، وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية ، وبعد ان ذقت جميع انواع الصفعات والشلاليت ، ومارست الاشغال الشاقة فى صحراء الواحات ، استطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير ، ان السجن ليس رادعا وليس وسيلة للعقاب . لقد اخترع الانسان السجن ليقضى على الجريمة ، ولكن هاهو السجن قائم ، والجريمة موجودة ، يسيران معا ، جنبا الى جنب . . ولا يلتقيان ، كأنهما شريط سكة حديد ، يكملان بعضهما ولايتعارضان .

واعتقد ان الانسان لابد أن يسعى لاختراع بديل اخر ، اذا أراد أن يقضى على المجرمين . . والاجرام !

وشيء آخر . نزلاء السجون فى بلد كمصر ، هم هم لا يتغيرون ، دليل ان المجتمع ثابت لايتحرك ، والاوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شيء بقطع الشطرنج . . احصنة وبعضهم عساكر ولاسبيل الى تبادل المراكز ، أو تغيير الادوار .

ثم شيء آخر . . وأخير . . لقد كان القصد من بناء السجن ، كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات ، وعلى الاسوار « السجن ، تأديب ، وتهذيب ، واصلاح » ولكن يبدو ان الاعمال ليست بالنيات فى مصلحة السجون ، لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم ، وتعذيب ، وافساد .

على أية حال ، لقد ترددت على السجون ثلاث مرات . وعندما استقبلنى عم عبدالقادر شاويش سجن القناطر اخر مرة ، صاح فى وجهى بانفعال صادق . . « ايه ده يابيه ، انت جت تانى ، انتو بقيتوا عاملين زى الحرامية ، ساعات بيخرجوا ، لكن دايما بيرجعوا تانى » !